**موقف الخلف من صفة الكلام ومناقشتهم**

***بحث فى : توحيد الصفات***

 *إعداد / أيمن محمد أبوبكر*

*قسم الدعوة وأصول الدين*

*كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية*

*شاه علم - ماليزيا*

*ayman.abobakr@mediu.ws*

**خلاصة هذا البحث فى : موقف الخلف من صفة الكلام ومناقشتهم**

**الكلمات الافتتاحيه : خلف، صفه، موقف**

* **.*المقدمة***

**الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين ، سوف نقوم في هذا البحث بمعرفة موقف الخلف من صفة الكلام ومناقشتهم**

* ***. موضوع المقالة***

أما من خلف من الخلف: فقد اختلف آثارهم، وتباينت مذاهبهم في هذه الصفة، ولكنهم على اختلافهم الشديد متفقون على عدم إيمانهم بكلام الله الحقيقي اللفظي، الذي يسمعه المخاطب، والذي من جملته القرآن الكريم. والأشاعرة من طوائف المتكلمين زعموا أن كلام الله معنى واحد، قائم بذات الله تعالى، وهو الأمر والنهي، والخبر والاستخبار، إن عُبِّر عنه بالعربية كان قرآنًا، وإن عُبر عنه بالعبرانية كان توراة. فيا ليت شعري من المُعبِّر عما في نفس الله باللغتين، إنه لموقف غريب، ولا مثيل له حتى في كلام أهل الكلام، مع ما فيه من التطرف في بعض النقاط. وهذه العقيدة كانت في الأصل لابن كلاب، وتبعه فيها أبو الحسن الأشعري عقب رجوعه عن الاعتزال، وقبل وصوله إلى منهج السلف، الذي يُعتبر آخر الأطوار الثلاثة له -رحمه الله.

أما الأشعرية المعاصرة: فعلى ما كان عليه أبو الحسن في الطور الثاني، ولذا نسميه أحيانًا والأشعرية الكلابية، فليعلم ذلك.

 شبهتهم في إنكار الكلام اللفظي: وأما شبهتهم فيما ذهبوا إليه أنهم يقولون: إن كان الله تعالى يتكلم بكلام له صوت وحرف؛ لزم لذلك التشبيه والتجسيم، لأنه لا بد له من مخارج الحروف من اللسان والشفتين وغيرهما، والله منزه عن ذلك إلى آخر كلامهم المعروف.

هذه شبهتهم. وهي من أخوات ما تقدم من الشبهات من النسيج الواحد.

الجواب: إذا قلنا: إنه تعالى يتكلم كما يليق بجلاله وعظمته دون أن نلزم كلامه لوازم كلام البشر؛ انتفت الشبهة، فقد جاء في القرآن الكريم أن بعض أعضاء بني آدم سوف تتكلم يوم القيامة كما ثبت في السنة، وكذلك الجمادات، وكل ذلك دون أن يكون لها مخارج الحروف، وإذا كنا نؤمن بكلام هذه الأشياء تصديقًا لخبر الله وخبر رسوله ، فكيف نستبعد إذًا أن يتكلم الله كيف يشاء، ومتى تشاء، وهو على كل شيء قدير، أو كيف نحاول أن ندرك كيفية تكلمه، وإذا ما عجزنا عن الإدراك؛ نفينا كلامه، كأننا نكذب كتابه ورسوله الصادق الأمين، أو نتلاعب بالنصوص بعقولنا القاصرة بدعوة التأويل، ونحن عاجزون عن إدراك كيفية كلام الأشياء المذكورة، وهي من مخلوقات الله تعالى.

وإليكم النصوص المشار إليها من الكتاب والسنة:

1. قوله تعالى {ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ ﮦ ﮧ} [يس: 65].
2. قوله  {ﭑ ﭒ ﭓ ﭔ ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ ﭙ ﭚ ﭛ ﭜ ﭝ} [فصلت: 21].
3. تسبيح الحصى، وتسبيح الطعام، وكلام الحجر عن المبعوث بالمعجزات الباهرات محمد ، كما أثبتت السنة ذلك، ونحن وإياكم نؤمن بذلك كله، فلنؤمن إذا بكلام الله الذي أنطقها وهو على كل شيء قدير، فقالوا: أما بالنسبة لهذا القرآن فهناك آية تدل على أنه مخلوق، وهو قوله : {ﮦ ﮧ ﮨ ﮩ} [الرعد: 16]؛ لأن القرآن شيء فلا بد أن يدخل في عموم الكل؛ لأنها من ألفاظ العموم. والجواب على هذه الشبهة: أن هذا الاستدلال من أغرب أنواع الاستدلالات بما يأتي:

أ. كيف يسوغ لهم الاستدلال بالقرآن المخلوق في زعمهم على أن القرآن نفسه مخلوق، بعبارة أخرى: إذا كان قوله تعالى: {ﮧ ﮨ ﮩ} مخلوقًا كما سموه، فلا يصح أن يكون دليلًا لهم، هذا، وإن كان القوم لا يصرحون بهذا المعنى إلا في مقام التعليم كما يقولون؛ احترامًا لهذا الكلام اللفظي الدال على الكلام النفسي الحقيقي، كما يزعمون، ولكن واقع عقيدتهم في القرآن هو ما ذكرناه؛ لأنهم يتفقون مع المعتزلة في أن القرآن مخلوق، وإن اختلفوا معهم في الأسلوب والطريقة؛ لأن أولئك صُرحاء فيما يعتقدون، كما سيأتي البحث مفصلًا في مسألة الاستواء.

ب. هل هم جهلوا أو تجاهلوا تجاهل عارف أن عموم كله في كل موضع بحسبه يختلف باختلاف المواضع، يعرف ذلك بالقرائن، ولو أخذ أخذ العموم هنا كما أرادوا؛ لدخلت في هذا العموم جميع صفات الله تعالى، بل المفهوم الصحيح أن عموم "كل" هنا إنما يعني: كل شيء مخلوق، فلا يدخل في العموم شيء من صفات الله، من الكلام وغيره.

ومما يؤيد ما قلناه قوله -تبارك وتعالى- في صنع الريح التي أرسلها الله إلى قوم هود: {ﮜ ﮝ ﮞ ﮟ ﮠ ﮡ ﮢ ﮣ ﮤ ﮥ} [الأحقاف: 25]، وهي لم تدمر كل شيء موجود، وإنما دمرت ما أراد الله تدميره من الأشياء التي تستحق التدمير، أما مساكنهم وأشياء كثيرة أخرى لم تُدمر. وكذلك قوله تعالى وهو يخبرنا عن بلقيس: {ﭕ ﭖ ﭗ ﭘ} [النمل: 23] وهل أوتيت بلقيس من كل شيء في الدنيا، أو حتى كل شيء في حياتها، لا وإنما أوتيت من كل شيء يحتاج إليه الملوك في مملكتهم، وهو أمر واضح كما ترى، ولو أن إنسانًا قال: قد حضر وليمة فلان كل الناس، إنما يفهم السامع أنه حضرها جميع المدعوين، دون أن يتخلف أحد لديه بطاقة الدعوى. وبعد فلما خنقتهم الأدلة وضايقهم أتباع السلف بالمناقشة حول النصوص التي وضعوها في غير موضعها، وأساءوا فهمها؛ لجئوا إلى بيت شعر هزيل لا مستند له لشاعر نصراني الأخطل حيث يقول:

|  |  |  |
| --- | --- | --- |
| إن الكلام لفي الفؤاد وإنما | \* | جُعل اللسان على الفؤاد دليلًا |

لجوء الغريق في السيل الجارف إلى ما تقع عليه يده أيًّا كان نوعه، وهو يحاول أن يجد ما يتعلق به ليسلم من الغرق، وربما مد يده إلى ذلك الزبد الذي يعلو السيل، ويجتمع أحيانًا في بعض المنعطفات، فإذا ما وصلت يده إليه لم يجده شيئًا، بل يتبعثر ويذهب مع الماء، وبيت الأخطل كهذا الزبد، أو هو كبيت العنكبوت، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت، فالاستدلال به في غاية الفساد للأوجه التالية:

1. أن المستدلين بهذا البيت قد ردوا، أو من أصولهم أن يردوا أحاديث نبوية مهما بلغت من الصحة وتلقاها أهل العلم بالقبول، ما لم تبلغ حد التواتر، أو بلغت حد التواتر عند بعضهم بدعوى أنها أخبار آحاد، أو أدلة لفظية، فكيف يستدلون بهذا البيت الذي يختلف أهل العلم في ثبوته، وعلى فرض ثبوته، فهل تواتر نقله.
2. أن ما يريدون إثباته بهذا البيت النصراني من أن الكلام ما في النفس أي: حديث النفس مردود بالنصوص التالية.

أ. قوله : ((إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس))، بل قوله: ((إن الله تجاوز لأمتي عن ما حدثت به نفسها، ما لم تتكلم به، أو تعمل به)).

ب. قوله : ((إن الله يُحدث من أمره ما يشاء، وإن مما أحدث أن لا يتكلموا في الصلاة))، فاستنادًا إلى هذه النصوص قد اتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم في الصلاة عامدًا لغير مصلحتها؛ بطلت صلاته، كما اتفقوا على ما يقوم بالقلب من حديث النفس لا يبطل الصلاة، فعُلم باتفاق من يعتمد باتفاقهم أن حديث النفس ليس بكلام لغة وشرعًا، والشارع إنما خاطب الناس بلغة العرب، وهي لغة قرآنه:

أ. "زعمت الجهمية كما زعمت النصارى؛ لأن النصارى زعمت أن كلمة الله حواها بطن مريم، وزادت الجهمية عليهم، فزعمت أن القرآن مخلوق حلَّ في شجرة فكانت الشجرة حاوية له، فلزمهم أن تكون الشجرة متكلمة بذلك الكلام، ووجب عليهم أن مخلوقًا من المخلوقات كلم موسى، وأن الشجرة قالت: يا موسى إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني".

ب. وقال الإمام أبو الحسن وهو يصف القرآن الذي تزعم الجهمية والأشاعرة معًا أنه مخلوق، وهو متلوٌّ بالألسنة قال تعالى: {ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ} [القيامة: 16]، ثم قال الإمام: "والقرآن مكتوب في مصاحفنا في الحقيقة، محفوظ في صدورنا في الحقيقة، متلوٌّ بألسنتنا في الحقيقة، مسموع لنا في الحقيقة، كما قال الله : {ﯦ ﯧ ﯨ ﯩ ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ} [التوبة: 6]".

وقد قال الإمام قبل ذلك: "القرآن في اللوح المحفوظ، وهو في صدور اللذين أوتوا العلم، قال تعالى: {ﮓ ﮔ ﮕ ﮖ ﮗ ﮘ ﮙ ﮚ ﮛ} [العنكبوت: 49]".

هكذا يؤكد الإمام أبو الحسن بهذا الأسلوب في عدة مواضع، في كتابه (الإبانة) أن هذا القرآن الذي نقرؤه ونحفظه كلام الله حقيقة بألفاظه ومعانيه، وليس هو عبارة عن الكلام النفسي، أو دالًّا عليه، أو ترجمة له، كما يزعم متأخرو الأشاعرة؛ بل هو كلام الله عناه الله بقوله، حتى يسمع كلام الله؛ لأن الكلام اللفظي المقروء هو المسموع.

أما حديث النفس فلا يقرأ ولا يسمع، وإذا قارنا بين ما سجله الإمام أبو الحسن الأشعري في إبانته وبين ما يقوله ويعتقده متأخرو الأشاعرة، نستطيع أن نقول: بأن نسبتهم للإمام أبي الحسن غير صحيحه، ثم قال أبو الحسن وهو يحاور الجهمية بأسلوب آخر غير الأسلوب الذي تقدم؛ ليثبت بأن كلام الله على تعدده وتنوعه غير مخلوق، حيث يقول: "قد استعان النبي  بكلمات الله التامات من شر ما خلق، إذ يقول : ((أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق))، وعلم أمته تلك الاستعاذة، وهي الالتجاء إلى الله من شر خلقه، وهي عبادة عظيمة، فلو كانت كلمات الله مخلوقة لما استعاذ بها ، ولما علم أمته، لأنه  ينهى عن ذلك، بل يعده نوعًا من الإشراك بالله.

ثم إن هذه الاستعاذة المباركة تدلنا على الأمور التالية:

أولًا: جواز الاستعاذة بأسمائه وصفاته كما يستعاذ بذاته، ويؤيد ذلك قوله : ((اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك)).

ثانيًا: أن كلمات الله ليست مخلوقة، إذ لو كانت مخلوقة لما استعاذ بها رسول الله  كما تقدم.

ثالثًا: أن كلام الله ليس معنًى واحدًا يقوم بالذات ليس بحرف ولا صوت، كما تزعمه الأشاعرة المتأخرة، بل كلمات الله لا حد لها؛ لأنها من كمالاته، فكمالاته سبحانه لا تنتهي، ومما يزيد المقام بيانًا قوله : {ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ} [الكهف: 109]، وقوله تعالى: {ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﯷ ﯸ ﯹ ﯺ ﯻ ﯼ ﯽ ﯾ ﯿ ﰀ ﰁ ﰂ ﰃ ﰄ ﰅ ﰆ ﰇ ﰈ} [لقمان: 27].

هذه المعاني هي التي يريد الإمام أبو الحسن إثباتها ليحاجج الجهمية، ومن يوافقهم في اعتقادهم بأن كلام الله مخلوق، وقد سبقه إلى مثل هذا الحوار إمام أهل السنة وقامع البدعة الإمام أحمد بن حنبل، حيث ألف كتابًا مستقلًّا في الرد على الجهمية.

ونودُّ أن ننقل هنا نموذجًا من حواره مع الجهمية في كلام الله تعالى، فيبدأ الحوار هكذا: "قالت الجهمية: إن الله لا يُكلم ولا يَتَكلم، فإنما كون شيئًا فعبر عن الله، وخلق أصواتًا فأسمع، وزعموا أن الكلام اللفظي لا يكون إلا من جوف ولسان وشفتين". فيقول الإمام أحمد: "قلنا: هل يجوز للمكون أو لغير الله أن يقول: يا موسى إني أنا ربك، أو يقول: إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، فمن زعم ذلك؛ فقد زعم أن غير الله ادَّعى الربوبية كما زعم الجهمية، أن الله كوَّن شيئًا، كأن يقول ذلك المكون: يا موسى إني أنا الله رب العالمين، وقال جل ثناؤه: {ﭹ ﭺ ﭻ ﭼ} إلى تلك الآيات التي ساقها، وهو يحاور مثلما قال: فهذا منصوص القرآن، ثم قال: فأما ما قالوا: إن الله لا يتكلم، فكيف يصنعون بحديث الأعمش عن خيثمة عن عدي بن حاتم قال رسول الله : ((ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، ولا حجاب يحجبه))، ثم قال الإمام أحمد: أما قولهم إن الكلام لا يكون إلا من جوف وفم وشفتين ولسان، أليس الله قال للسموات والأرض: {ﯪ ﯫ ﯬ ﯭ ﯮ ﯯ ﯰ} [فصلت: 11]. أتراها قالت: بجوف، وفهم، وفم، وشفتين، ولسان، وأدوات. وقال: {ﮮ ﮯ ﮰ ﮱ ﯓ} [الأنبياء: 79] أتراها يسبحن بجوف وفم ولسان وشفتين. الجواب الذي لا بد منه لا. ولكن الله قادر على كل شيء، هو الذي انطق تلك الجمادات، فجعلها تتكلم حقيقة دون آلات معهودة للتكلم عادة، تسمى مخارج الحروف، فهل الذي مكن لهذه المخلوقات من التكلم يعجز عن الكلام، أو يمتنع عليه الكلام اللفظي، كما زعمت الجهمية، لماذا يمتنع عليه؛ لأن الكلام نقص، أو بعبارة أخرى: هل الكلام من صفات النقص، أو من صفات الكمال، أليس المخلوق الذي يتصف بالكلام خير وأجمل من الذي لا يتكلم.

الجواب: بلى بإجماع العقلاء، فهل تسوغ عقول الجهمية أن يكون المخلوق أكمل من الخالق؛ لأن كثيرًا من المخلوقات تتصف بالكلام، وهو صفة كمال، والخالق يمتنع عن الكلام، فليس الذي يعطي الكمال أولى بأن يتصف بالكمال على أكمل وجه، بحيث لا يشاركه أحد في خصائص ذلك الكلام.

الجواب: بلى لدى جميع العقلاء، هذا المعنى هو الذي يدور حوله حوار الإمام أحمد، وإلزاماته للجهمية، لو كانوا منصفين وطلاب حق، وأخيرًا هو الذي يريد إثباته أبو الحسن الأشعري في كتابه (الإبانة).

**المراجع والمصادر**

1. **تقي الدين أحمد عبد الحليم بن تيمية ، مجموع الفتاوى، جمع وترتيب/ عبد الرحمن بن قاسم، المدينة المنورة، طبع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف, عام 1416هـ.**
2. **علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي ، شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق د/ عبد الله التركي وشعيب الأرنؤوط، بيروت، الطبعة العاشرة مؤسسة الرسالة، 1417هـ.**
3. **محمد بن خليفة التميمي ، معتقد أهل السنة والجماعة في أسماء الله الحسنى ، الرياض، مكتبة أضواء السلف الطبعة الأولى، 1419هـ.**
4. **محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ،الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، الرياض، دار العاصمة، 1998م.**
5. **محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية ، اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية، دار الكتب العلمية, 2003م.**
6. **هبة الله بن الحسن اللالكائي ، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، تحقيق ، أحمد سعد حمدان، الرياض، دار طيبة، 1982م.**
7. **محمد بن إسحاق بن خزيمة ، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل ، تحقيق: عبد العزيز الشهوان، الرياض، دار الرشد للنشر والتوزيع،1987م.**
8. **محمد ناصر الدين الألباني ، مختصر العلو للعلي الغفار ، المكتب الإسلامي، 1980م.**
9. **محمد بن صالح بن عثيمين ، القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، تحقيق: أشرف عبد المقصود، القاهرة، مكتبة السنة، 1993م.**
10. **إبراهيم البريكان ، القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف ، الدمام، دار ابن القيم، 2004م**
11. **عمر سليمان الأشقر ، الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، الأردن، دار النفائس للنشر والتوزيع، 1992م.**
12. **أحمد عبد الرحمن القاضي ، مذهب أهل التفويض في نصوص الصفات "عرض ونقد"، الرياض، دار العاصمة، 1995م.**
13. **عبد الرحيم السلمي ، حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، الرياض، دار المعلمة للنشر والتوزيع، 2000م.**